نظرة جديدة في الجرح والتعديل مراجعات حول النظرة:

الشيخ/ أبو قتادة

لقيت هذه النظرة من أولها إلى ما وصلت إليه الآن، الكثير مما يستحق أن نقف عنده ونعالجه في هذه المراجعات، وككل كتابة إن وفق الله تعالى كاتبها لابد أن تثير القارئ، إثارة تصدمه وتدفعه للتفكير والمراجعة، وتنمي لديه الرغبة في البحث والاكتشاف.

هذه الفقرة جوبهت بالكثير من الحرج من بعض المحييين، حيث عبّروا -حفظهم الله- عن شفقتهم لهذا الطريق الشاق الذي سلكته، شفقة على الكاتب، وشفقة على النشرة ومن تصدر باسمهم، وقد ناصروا رأيهم ودعموه بأنّ الجهاد يحتاج إلى أنصار، كما أنه مقذوف من كل جانب بشئى التهم الباطلة، فالأحرى والأولى أن نجمع ولا نفرّق، وهذه الورقات وبالأخص ما يكتب هنا وما يكتب في الفقرة الأخرى يكثر الخصوم لا الأنصار، ومع ما في هذا القول من بعض صواب إلا أنّ البحث الواعي يردّك إلى الجواب الشرعي الذي ينبغي أن تلمّز غرّره ولا نفارقه تحت دعوى المصلحة الموهومة. وقبل أن أخوض وأبحث في المستند الشرعي لهذه النظرة، فأني أريد أن أنبه إلى شيء خبرته من هؤلاء القوم الذين يُطلب منهم التأييد والمناصرة، سواء كان هذا من شيوخ وطلبة علم، أو من غيرهم من الدّهماء والعامّة، هؤلاء القوم دلت الأحداث على أنّهم أسرى لعقدة النصر والدعاية، وأعني بهذه العبارة؛ أنّ الكثير من المفكرين والمشايخ تبع لا قادة، فهم ينقادون إلى الصخب العالي، ولا تستهويهم البدايات، والتي تكون غالباً صغيرة الشأن، لا تحمل في داخلها الرّغبة التي اعتادتها شعوبنا، فلو جاء قائد أفغاني مثلاً ليطلب دعماً مادياً في بدايات الجهاد الأفغاني، وهو في أول الطريق حيث لا يصاحبه صخبٌ إعلامي، ولا تأييد شعبي واسع، لصفعه على قفاه، وانتهره بأقسى العبارات، ولكن حيث علا الضجيج الإعلامي للجهاد الأفغاني، وسمح للمشايخ بالبيكاء على المنابر له، وصار مدّه عالياً واسعاً، رأيت كلّ المشايخ يطلبون ودّه بالفتوى حيناً، وبالذّعم المالي حيناً، وبالزيارات التي كانوا يقومون بها كحسو الطائر حيناً آخر، وقلما تجد من يتكلم وهو يحمل مشروعاً يصلح الخلل، أو يقوّم المسيرة، أو يرشد الطريق، وكان كلّ شيء هو منتهى الطلب وغاية المنى، حتّى إذا وصل الجهاد إلى ما وصل إليه، عاد أولئك المشايخ إلى حظائرهم سالمين، ولأن الهزيمة لا أب لها فمن الذي يستطيع الآن أن يقول ما كان يقوله بالأمس.

ولو افترضنا أنّ هذا الجهاد حقّق الآمال التّهائية للمشروع الإسلامي لكان كلهم أبوه، وكلهم صاحبه، وهو وليّه من دون الآخرين. وكذلك ما حدث مع جبهة الإنقاذ في الجزائر وأمر الانتخابات، فمن ذا الذي جرّو أن يشير إليها في وقت صخبها العالي، ومدّها المتّسع، وأن يتكلم عنها أو يشير إليها بطرفٍ خفيّ، لكنّها الآن كالأولى لا أب لها، هذا أمر أمّتنا تحسن

ركوب الموجة وهي مرتفعة، أمّا أن تستثمر الضّعيف الصّالح لتقويّه، أو تقوّم الكبير لتلاينهار، فليس هذا من شأنها.

والجهاد في الجزائر الآن لا أب له، والمؤيّدون له يتكلّمون عنه باستحياء وبعبارات مقنّعة، وإني لأرجو من الله تعالى - وهو أهل لكلّ خير- أن يمتدّ شأنه، وبأخذ طريقه إلى مواقعه الأولى في مشروعه بإقامة دولة الإسلام، حينئذ لا تنس أخي القارئ هذه الكلمات، فسيصبح الكلّ أبوه ووليّه، وصاحبه الذي دعمه وأيده، وأمّا إن كانت الأخرى، وهي ليست بالممتنعة، فسيخرج الناصحون والعقلاء وسيملاون الدّنيا ضجيجاً، بأنّهم نصّحوا وأبلغوا في النّصيحة، وقالوا: ألم نقل لكم رويدكم؟ ألم نقل لكم لم يحن القطاف بعد، وحينها لا أب له، وللأسف فهذا أمر مشايخنا، وهو كذلك واقع أمّتنا على الجملة، وهي أسيرة -كما يقال- للواقف، وأمّا الضّعيف فالناس لا يحسنون إلّا ذبحه وسلّخه.

ومن هنا فإنّ النّاس سيحترمون الجهاد في الجزائر لا لقوّة أدلّته الشّرعيّة، ولا لكونه حقّاً يعدل النّاس إليه، بل حين يصل إلى درجة من الدّعاية العالية أو النّصر المرتقب، وحينها -صدّقوني- حتى محفوظ التّحناح سيكون أمره عند نفسه وعند أصحابه بأنّه هو الذي فجر الجهاد في الجزائر، وهو أبوه من دون بقيّة النّاس، فعلى الإخوة الأحبّة الذين يشفقون على هذا الجهاد من قلة ناصريه أن لا يهتمّوا بهذه القضية كثيراً، وإلّا فكم عدد الذين جلستم معهم من المخالفين له ثمّ بيّنتم لهم وجه الحق في هذا الجهاد فاقتنعوا به وأزروه؟ أظنّ أنّ العدد مخجلٌ ولا شكّ.

أمّا ما يخصّ البعد الشّرعي لهذه النّظرة فهي أوّلاً رضيت لنفسها أن تسلك سبيل السّلف، وأن تجري على خطاهم وسينهم، وتكشف النّاس والأعلام بما فيهم من حقّ وصواب، وبما فيهم من خطأ وغيره، أمرٌ قام به الأسلاف الذين أوصلوا لنا هذا الدّين نقيّاً سليماً.

وممّا ينبغي الوقوف عنده هو أنّ هذه النّظرة لا تتدخّل في خصوصيات المرء، وهو الشّيء الذي يحب المرء أن يستره من نفسه، فحيث رضي المسلم أن لا يكشف شيئاً من الأمور فنحن نعيّنه على ذلك، ونقف منه حيث وقف من نفسه، وإمّا تتعامل هذه النّظرة مع ما يُظهر المرء، وخاصّة ما يتعلّق بهذا الدين، ففكر المرء وعقيدته وفهمه وتصوّره هو ملكٌ لنفسه وذاته وحده، حتّى إذا دعا النّاس إليه وأخرجه للملا فحينئذ صار مُلكاً للآخرين، لهم الحقّ أن يقبلوه أو يردّوه، ولهم الحقّ أن يُناقشوه، وحينها فلا يُقال للمناقش والباحث: أنت تتدخّل في الخصوصيات، أو كما يُقال من بعض الإخوة: هلا تركتم ذكر الأسماء، واكتفيتم بالقول: "ما بال أقوام"... فنقول إنّنا نقول ما بال أقوام حين يكون الأمر يخصّهم وحدهم، والخِطاب متوجّه إليهم حتى يستفيدوا منه، إذ لا حاجة للآخرين بأن يعرفوا من هو المقصود، أمّا حين يكون الأمر -كما هو في هذا الحال- أمرٌ فكر وتصوّر، ثمّ حمّله صاحبه ودعا النّاس إليه، وشهّره بين الناس، ثمّ صار هذا القائل مع قوله فتنة للنّاس يتبعونه ويقلدونه، فالواجب هو -فيما أعتقد- هو أن نعمل ما فعلناه، هذا مع علمي أنّ واقع العمل الإسلامي مليء بالمثالب والنقائص ومن أعظمها الغيبة والنميمة،

والكيد للآخرين، إلا أن الجميع والأغلب يراوغ حين يُطلب منه إثبات ما يقول ويهذي.

لقد سُئِلَ الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-: "الرجل يصوم ويصلي ويعتكف وأحب إليك، أو يتكلم في أهل البدع؟. فقال: إذا صام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين، هذا أفضل" (مجموع الفتاوى لابن تيمية)، وقد عدَّ بعض العباد قديماً علم الجرح والتعديل غيبة أو أنه يقسِّي القلوب، فلو أن الرجال العظماء من أهل الحديث استجابوا لهؤلاء، أصحاب القلوب الطيبة والعاطفة الجياشة، لكنَّها البعيدة عن قيم العقل والعلم، فماذا ستكون النتيجة؟ إنها حينئذ الطامة الكبرى، وسيضيع علم الحديث، ولا يبقى للمسلمين قدرة في تمييز الصحيح من الضعيف في الحديث.

ومما أشار إليه البعض أن أعمال قواعد الجرح في هذا الزمان خطأ فارح، ولا أدري وجه قوله، ولكنني لم أناقش الآخرين في ضبطهم وقوة حفظهم، وإنما كان بحثي في فهم هؤلاء القوم لتوحيد الشريعة والقدر، ثم لفهمهم قتال طوائف الردة التي غلبت على المجتمعات، فلا يُقال حينئذ: لماذا لم تذكر فضل الرجل: أنه من حفظة كتاب الله، أو أنه يتقن فن التجويد؟ فهذا أمر لم أجمع هذه الورقات من أجله، ولا لأستوعب حال الرجل من جميع جوانبه، فهي دراسة لا أستطيعها، وإن استطعتها فليس هذا موطنها في مثل هذه النشرة، فكان أمر ما يكتب هو كأمير العلامة والدلالة التي تبين عما تحتها. قال بعضهم: إن في هذا الفعل إسقاط للرموز، وهذه الرموز هي رموز حقيقية، وليست مزيفة.

فأقول: هذا القول خطأ محض من جهة النظر العلمي، فليس في البحث العلمي رموزاً وغير رموز، ولكن في دين الله تعالى والبحث العلمي يوجد حقٌ وصواب، وهمٌ وخطأ، بدعةٌ وضلال، والطفل في الإسلام يردُّ على شيخ الإسلام، وأما أمر الرموز وغير الرموز فهو إرثٌ صوفي، يحجب المرء عن إِبصار الحقيقة فحين يكبر الرمز ويصبح في نفوس أتباعه ومحبيه أكبر من الحقيقة نفسها، فحينها على الحق السلام.

وكان مما أخذ على هذه النظرة قسوة العبارة وحدتها، والردُّ على هذه المؤاخذه من جهتين:

الأولى: شرعية استخدام الألفاظ الحادة والشديدة في حق الخصوم.

الثانية: استحقاق الأعلام لهذه العبارات.

بيان الجهة الأولى: إنه من المؤسف حقاً أن يظنَّ بعض الأحبة أن العبارة الشديدة لا ينبغي استخدامها بحالٍ من الأحوال، ولعلمهم يفسِّرون معنى الحكمة على وجه واحدٍ من البيان، وهو رقة العبارة وعدم شدتها، وهذا الظنُّ هو كظنِّ بعض المسلمين أن استخدام العصا بجانب الحكمة، وهذا ظنُّ مخطئٌ ولا شك، لأنَّ الحكمة هي استخدام الوسيلة الحق (الموافقة للواقع) للبلوغ إلى الهدف بأقلِّ كلفة وخسارة، وعلى هذا فلا بدَّ من تحديد الهدف، لنعلم هل هذه الوسيلة تحقق الهدف أو لا تحققه؟.

والهدف مع المخالف قد يكون واحداً، وهو بيان خطأ المخالف ومجانبة الصواب، فلو انفرد هذا الهدف كمطلوب للمتكلم والكاتب، فحينئذ يقتصر الراد على المسائل العلمية فقط دون تشديد عبارة، أو قسوة لفظ، لكن إن كان هناك مراد آخر غير بيان الخطأ، وهذا المراد هو زجر المخالف ليرتدع، ثم تنفير الناس عنه، فحينئذ لابد من استخدام العبارات التي تؤدّي هذا الغرض، وهناك تكون العبارات الشديدة، والألفاظ الغليظة، لأنه لا يمكن بلوغ هذا الهدف إلا بهذه الطريقة، وحينها تكون الحكمة في استخدامها، والإعراض عنها هو مجانبة الحكمة، وضدّ قواعدها.

هذا الذي قلته، شرّخته السنة النبوية، وبيّنته أفضل بيان، ثم سار على هديه السلف الصالح من غير تكبر ولا حرج.

فلو عاد طالب العلم إلى ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم في تبيكته الداعي بدعوى الجاهلية، والمفتخر بأصول آبائه وأجداده على أصول آباء وأجداد الآخرين، لوجد عبارات هي في قمة التنفير في شدتها وغليظتها، فقد روى الإمام البخاري في الأدب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا)). والهن هنا هو ذكر الرجل، فهذا اللفظ الشديد ما هو إلا لزجر هذا الجاهلي، وتنفير الناس من قوله وفعله، والسنة مليئة بهذا، وإنما اخترت هذا المثال لوضوحه، وعدم إمكانية دخول التأويل عليه، ولأن هذه اللفظة هي أقسى ما تخطر على بال الرجل حين يريد أن يشتم أحداً، إذ لا يتصور أن هناك عبارة أقسى منها وأغلظ.

وقد استخدم الصحابة أمثال هذه العبارات مع وفرة عقلهم، ورجاحة فهمهم، وقيلت أمام النبي صلى الله عليه وسلم، ولم ينكرها أو ينبه إلى خطئها، لأنها حين قيلت كانت تعبر عن تمام الحكمة والعقل، ولو بُرعت من موطنها لتستبدل بغيرها لما قام لها بديلاً، فهذا أبو بكر يُجيب أحد المشركين بقوله: "يا ماصّ بظر اللات"، وهي عبارة تدلّ على نفسها، وتبيّن عما تحتها بنفسها، دون شرح أو إسهاب. ولا يقول قائل هذه عبارة قيلت في حق مشرك، لأنّ الكلام ههنا عن ضرورة هذه الكلمات في بعض المواطن، لأنها هي دون غيرها توصل للمراد والهدف، والذين يتصنعون الأدب البارد لا بدّ لهم من استخدام هذه العبارات يوماً ولا شك، وما من إنسان كائناً من كان إلا وهو مضطر أن تشدّ عبارته، وتغلظ لما يقدر لها أنها تناسب هذا المقام أو تليق بهذا الحال، ولو راجع المرء نفسه، لوجد ما قلته حقاً، لأنّ هذه العبارات هي عبارات موجودة كامنة في النفس، وتشغل حيزاً في ذهن الإنسان، فلا بدّ أن يستخدمها، شاء أم أبى، والحكيم هو من يضعها مواضعها.

فالذين يدعون إلى إزالة الألفاظ الشديدة الغليظة من معجم الحياة، هؤلاء واقعهم يكذبهم، وهم كمن يدعو إلى كسر العصا في التأديب والتربية. هذه واحدة.

والثانية: هو تقدير المرء للواقعة ليستخدم لها سبيلها من غير نقص ولا زيادة، وهذا أمر نسبي، والناس يتفاوتون في تقدير الظرف والواقعة من جهة قدره، ثم إن هذا الأمر يعود إلى فطرة المرء وطبيعة تكوينه، فالنفوس تتفاوت وهي

ليست على طبيعة واحدة، وهذا من أعظم الأدلة على قدرة الله وحكمته، ولعلَّ كلَّ واحدٍ منَّا عنده مخيالٌ ما لصورة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومخيال آخر لصورة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهما أعظم النَّاسِ وأكملهم بعد الأنبياء، والصَّورتان تختلفان كثيراً، وحمل الواحدة على الأخرى هو من أفسد ما يخطر على بال المرء.

بل لو قرأ المرء القرآن بتمعن لوجد هذا التَّفَاوُت النَّفْسِي بين الأنبياء عليهم الصلوة والسلام، فليس من قال: ((ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً))، كمن قال: ((إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم))، وليست نفسية موسى عليه السلام في شدته حين غضب على الحجر الذي هرب بثيابه فجعل يضربه بعصاته حنقاً عليه، [وهي صورة تدلُّ على حالة الغضب التي ملكت على موسى عليه السلام نفسه حتى جعل يضرب الحجر]، قلت ليست نفسية موسى عليه السلام وتكوينها، كنفسيَّة محمَّد صلى الله عليه وسلم وهو رافعٌ يديه يدعو لأهل الطائف بالإسلام، وقد أخرج منها مُدْمَى القدمين والرَّاسِ، كسير النفس، مكلوم الخاطر.

نعم نفوس النَّاسِ تتفاوت في تلقِّيهم للحدث واستقبالهم له. فمقال محمَّد سعيد رمضان البوطي لعدو الله حافظ الأسد وهو يعزِّيه بوفاة ابنه الذي كتبناه في ترجمته قد يتلقاه البعض بقوله: سامحه الله وغفر له. وقد يتلقاه الآخر بقوله: نعوذ بالله من الخذلان. وقد يتلقاه آخر بقوله: ما أظنُّ إلا أن الله قد غضب على البوطي في هذه الكلمة. وقد يقول آخر: هذا رجلٌ عدوٌّ لله.. وهي عبارات شرعية بمجملها، وإذا أردنا أن نتخيَّل عمر بن الخطاب في تلقِّيه لهذا الحدث لتخيُّلنا مخيلاً متقارباً، أمَّا أنا فإنِّي لأجزم أنه لو سمع عمر بن الخطاب، أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولها لرجل آخر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لقال له: ويلك، أتتألى على الله، ثم علاه بدرته حتى أدمى رأسه.

أمَّا أن يقولها شيخ معمم لحاكم بعثي نصيري حاقداً، كافر، لعين، عدوٌّ للإسلام وأهله، فما أظنُّ حدَّ الردة بعيداً عنه، أو على أقلِّ تقدير أن قوله تعالى: {هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان} نازلة في حقِّ البوطي وأمثاله. بيان الجهة الثانية: استحقاق هؤلاء الأعلام لهذه الألفاظ. تقديرات النَّاسِ هذه الأيام لما هو عظيم جليل، وما هو حقير رذيل تتفاوت وتختلف، فالجماعات والأفراد تتعامل مع القضايا بحسب ما تراه مناسباً وضرورياً، فبعض المسلمين لا يُقيم وزناً لشرك القبور، ويقيم الدنيا ولا يقعدُّها لقضية أخرى يراها مهنة جليلة، مثل قتال اليهود في فلسطين، وآخر يعلق مناصب الولاء والبراء على قضية توحيد الأسماء والصفات، ولا يقيم رأساً لشرك الدساتير الوضعية والقوانين الشركية، وآخر هممه حمل السلاح والقتال ولا يهتم لمسألة التوحيد ومسائل البدع، وآخر، وآخر، فمناطات الناس واهتماماتهم ليست واحدة، وعلى ضوء هذه الاختلافات يعلق النَّاسِ ولاءهم وبراءهم، وتشتدُّ عباراتهم أو تلين.

وللتوضيح فسأضرب بعض الأمثلة:

الأستاذ راشد الغنوشي: رجلٌ يعشق الحُرِّية والديمقراطية، وهو سياسي ليبرالي إلى مشاشه، لو سألته -وقد سئل- عن رأيه في حركة التجديد التي قام بها محمد بن عيد الوهاب في الجزيرة العربية، فأجاب: "بحثت كثيراً عن كلمة واحدة في مؤلفات محمد بن عبد الوهاب تتعلق بتوزيع الثروة فلم أجد". (عجبي!! ربما اكتشف راشد أنّ أنابيب البترول كانت زمن ابن عبد الوهاب ممدودة سرّاً إلى أمريكا).

الشيخ ناصر الألباني: متوقّف في تكفير صدام حسين، لأنّه لم يثبت لديه أنّ صدام حسين يستحلّ الحكم بغير ما أنزل الله، والشيخ ناصر كقر حسن السقاف (رجل بدعي ضلالي مهتمّ بتكفير ابن تيمية وتلميذه ابن القيم) لأن الشيخ ناظره وتبين له أن السقاف مُعرِض عن الحق، والشيخ ناصر لم يكفر مدّعي النبوة لأنّه جاهل. (تقديرات).

عصام العريان: في شريط الإرهاب، حينما يتكلم عن المجاهدين بمصر يقول: "دول عقلهم ضارب" (أي هؤلاء لا عقل لهم)، وحين يتوجّه بالخطاب لباباهم شنودة، تسيل منه عبارات التمجيد والاحترام. (هو حرّ).

ربيع المدخلي: يتقرّب إلى الله بتضليل، وربما تكفير سيّد قطب لأنّ سيّد قطب يجيز الحكم بغير ما أنزل الله، ويسمّي سلمان العودة وسفر الحوالي بغاة لأنهم خرجوا عن إمام العدل فهد بن عبد العزيز. (يحيا العدل).

الإخوان المسلمون الليبيون: يرون الجهاد في الجزائر فتنة يجب اعتزالها، وأمّا قتال اليمن تحت راية علي عبدالله صالح جهاد في سبيل الله، والقتلى شهداء. (لا تعترض فتنطرد).

إسماعيل الشطي: (الخصم الإسلامي الوحيد لكمال الهلباوي في كتابه "السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط"، بسبب خروجه عن الصفّ الحدودي) وقف حائراً عند اجتياح صدام للكويت: أيقف مع الشعب (الكويتي المجاهد!!) أم مع الحزب المتملق لصدام (صلاح الدين الجديد)؟. فاختر الشعب. (حكمة، ولا لقمان عليه السلام لها).

قادة المكاتب في حماس فلسطين: يعلنون صباح مساء أنّ الدّم الفلسطيني، لا ينبغي أن يراق بيد فلسطيني. (وجهة نظر، لعلّ الدّم الفلسطيني أزرق اللون).

والقائمة طويلة، وصدّق التونسيون حين قالوا: تفهمها تتعب..